حديقة المقتطف

رابندرانات تاجور

الفصل الثالث

مدرسة تاجور

محمود المنحوري

مدرسة تاجور

محمود المنجوري

من الصور التي لازمت خيال تاجور منذ كان طفلاً صورة ذلك المكان الذي اتخذه ابوه في ظاهر مدينة « بلبور » بين الغابات ، يتعبد فيه ويلقي على الناس دروس الحكمة والتأمل في ابداع الله العظيم . . فلقد نشأت صورة هذا المكان الذي كان يأوي اليه والده طول اليوم ، مفكراً هادياً الى صراط مستقيم ، ذات أثر بالغ في نفس تاجور وكان باراً بذكرى والده الحكيم عندما هاجر في سنة ١٩٠١ الى هذا البيت الذي أنشأه أبوه واتخذ منه مسكناً ومعبداً ومكتبة وحديقة ، وجعله مثابةً يحاول فيها تنشئة جيل يحب الطبيعة ويحنو عليها ، طبقاً لرسالته التي كان يحسّ في دخيلته بوحي ادائها الى أهل وطنه . ورأى تاجور ان تكون المدرسة وليدة البيئة التي ينشأ فيها الطفل لا تعلو عليها ولا تنخفض عن مستواها والاّ اخرجت جيلاً غير صالح لبيئته . ولما كانت مدنية الهند قد نشأت اول امرها في الغابة فهي حضارة ذات قيم متصلة بالتفكير غير المحدود ومرتبطة أشد الارتباط بالتعارف بين روح الكائنات

و ولهذا كانت الفكرة الاساسية التي بنى عليها نظام مدرسته هي تحبيب الطبيعة الى الطفل واستبقاء الصلة بالدراسة بينه وبين البيئة التي يعيش فيها ، وليس نجاح هذه المدرسة يرجع الى الفكرة النظرية التي بنى عليها نظام التعليم فيها ، ولكن حب تاجور للطفل وميله الشديد الى خدمة أمته بل وخدمة الانسانية من هذه الطريق دفعاه الى تخصيص أكبر جزء من وقته لتحقيق هذا القصد السامي (١)

نشأ تاجور يتيماً ، فأحس مرارة اليتم اذ حُرم عطف الأم صغيراً ، ورأى والده منصرفاً عنهُ الى عبادة الله ، يذهب كل يوم الى دارم بالغابة يحدث الناس فيها عن أثر الخالق في أنفسهم ، وفيما ينظرون ، ووجد في أفراد اسرته العلماء والفلاسفة والمفكرين الذين تأثروا أبلغ التأثير بتعاليم « يوبانيشاد » واتبعوا أحكام بوذا في ايصال الروح البشرية بالعالم الذي يحيط بها ، وبالحقيقة المطلقة التي تتصل بسرّ الوجود ، فنمت روحه وأشرفت على المعاني السامية التي أرادت التعبير عنها . وكان قد أصابه في صباه ما أصاب أطفال الهند من عنت وسوء معاملة في مدارس عهده ، فأراد وهو المصلح الانساني ، ان يعالج امراً شعر بالنزائه ؛ وفي اصلاحه تنشئة جيل جديد ، على افكار ومبادىء انسانية خالية من الشذوذ والاخطاء ، بعيدة عما

(١) خطبة الشيخ همايون كبير وزير المعارف ورئيس لجنة الاحتفال بتاجور في مصر سنة ١٩٢٦

يلقي بالتفكير والعواطف والمدارك في طريق التعصب والشذوذ وعما ينأى بالروح عن مرافق الحياة السامية المتصلة بجمال الطبيعة

لقد كانت المدرسة في مقرة تاجور تقوم على نظام قديم أنشأه حكماء الهند منذ زمن بعيد ، فكانت المدرسة تؤسس في مكان بعيد عن المدينة ، بين الغابات ، يشرف على جمال الطبيعة ومباهجها ، فكانت حقاً كما أطلقوا عليها «مدارس الغابات» أو كما كانوا يسمونها «أسرم» . ولكنها لم تكن في الحق مدرسة تدرس فيها العلوم المتصلة بالحياة ، بل كانت هياكل نسك ورهبنة وتلقين لمبادىء الدين وتعاليمه طبق عقائد الهند القديمة . وكان كل طفل يوضع في رعاية شيخ كانوا يسمونه « جورو » او العريف الحكيم ، يتلقى الطفل عنه مبادىء التفكير والعلم واللاهوت والحكمة ، متدبراً مباهج الطبيعة وآثارها المختلفة من سماء ونجوم وأقمار ورعود وأنهار وأشجار وأزهار وهوام وحيوان وانسان

هذا النظام القديم راق تاجور ، ووجد فيه خير عون له على تنشئة جيل يحب الطبيعة ويدرك جمالها وأسرارها ، ولكنه أراد ان يرفع عن هذا النظام ما كان يشعر به في طفولته من عوج وشذوذ فيه ، فذكر ان الهند أصبحت في غير حاجة الى معابد للصلاة ، ولا الى مدارس تقام فيها الشعائر وحدها ، ولكن الهند في حاجة الى «مدرسة الغابة» حيث يجتمع الى جمال الطبيعة تفكير العلم وثقافة العقل البشري ، وحيث ينعد قلب الحياة بتفكيرها ، فتسمو المدرسة الى معبد روحي ، يحبب الطبيعة والجمال والمعاني السامية الى الاطفال ، ويصل بهم دون وعي منهم الى الروح ، التي يجب ان تصدر عنها جميع اعمالنا الخيرة

ودراسة طبيعة الطفل ، وانشاء الصلة بينها وبين ما حول الطفل من بيئة ، وتقوية الروح والارادة والادراك ، كل هذه مجتمعة هي الاسس الاولى التي بنى عليها تاجور مدرسة (شانتي نكتان) في عهدها الجديد سنة ١٩٠١ . ولكن فكرة المدرسة القديمة مدرسة الغابة كانت هي الجوهر الاساسي لهذا النظام لانها كانت في الحق الفكرة المحببة الى تاجور ، وظلت كما هي حتى أصبحت هذه المدرسة فيما بعد معهداً عالمياً يحضره العلماء والفلاسفة والمفكرون من جميع أقطار الدنيا . فمدرسة الغابة هي حلقة من الاطفال تلتف حول معلمها تحت الاشجار في ضوء الشمس وأحضان الطبيعة ، وتاجور يعتقد أن الطبيعة هي خير معوان للمعلم في اداء عمله . وبدأ تاجور مدرسته ببضعة اطفال بثّ فيهم تفكيره وملاحظاته ، ثم نما العدد الى نحو العشرين بعد عامين ، ثم الى ستين بعد اربعة أعوام ، والى مائتين في بضعة أعوام . وكان تاجور يرى نفس الطفل مسرحاً بكراً لمستقبل العالم الروحي والمادي ، وينظر الى هذا المخلوق نظرة تقدير ومحبة وعطف . فنظرة كاملة يرى الاطفال فيها مخلوقات لا ينقصهم شيء غير تفتح المواهب والتفكير

والاحساس . فهم حكماء وعلماء وقادة وشعراء ولكن في أكمل كائن، التي أحسنت الطبيعة والبيئة اليها تفتحت عن جمال وروعة ، وان أهملتها ذبلت موءودة ، وخسرت الحياة أعز ما تملك لأن هؤلاء هم ذخرها ومستقبلها . والاطفال يجب أن يفهموا أنفسهم ويقبلوا على الحياة من وجهها الحق وان يدركوا ما فيها من جمال وأسرار ، وان يندمجوا في الطبيعة ويعتبروها أمًّا محببة اليهم تشيع فيهم الروح العليا، فتسمو أهدافهم وحركاتهم عن الحق والحب والخير، وليدركوا بهذا الحنو المشترك بينهم ، ثم بينهم وبين الكائنات الأخرى ، انهم جزء لا ينفصل من وحدة تامة لهذا الوجود تشعر بشعور جامع واحد

وادراك الطفل لشخصيته وتميزها ، لا في حدود الانانية والانرة ، ولكن في حدود الروح الجامعة للحياة كلها ، هو العمل الأول لنظام تاجور المدرسي، ومن هنا كانت الارادة في مدرسة تاجور، ارادة جامعة وليست ارادة فردية، هي وحي الجماعة صادر عن مباعث الخير والفضيلة واتجاه الروح العالمي ، وهذه الارادة متى توحدت في اتجاهها وكانت صادرة عن شعور واحد روحي أنتجت تفكيراً متحداً يخدم البشرية كوحدة منسجمة متصلة غير متعارضة في أهوائها ومشاعرها ومداركها ومقاصدها في الحياة . فالخير والوصول الى الحق من طريق ادراك النفس ، والشعور بالشخصية الخاصة ، هو هدف تاجور التعليمي في مدرسته . ولقد وضع لمدرسته منهاجاً يومياً وصفهُ أحد تلاميذ تاجور فقال :

« ينهض جماعة الاطفال من الاطفال في مطلع كل يوم حوالي الرابعة والنصف صباحاً يرتلون أناشيد هندية عادية ، وهم يجوبون المدرسة لايقاظ زملائهم بعد ثغوة النوم وعدوه الاحلام . فاذا ما زال منهم نعاسهم هرعوا الى جمال الشجر يشرفون عليه في هدوء واستشراق ويقظة روحية ، تتسرى الى نفوسهم براءة الجمال وروعة القوة القديرة الخالقة التي تسلخ من الليل نهاراً ونوراً ، وتبعث من الهجوع حركة وحياة ونشاطاً في جميع الكائنات — فاذا ما انتهت فترة التأمل الاولية، انصرف الاطفال الى تنظيف غرفهم بأنفسهم ولم ما فيها من شعث ، فاذا ما انتهى هذا الدرس النفسي الذي ينتهي الطفل معتمداً على نفسه محترماً جميع الاعمال وان صغرت ، توجه الاطفال الى ملاعبهم الرياضية في طلق الهواء وجمال الطبيعة بين الشجر العالي يجرضون أجسامهم ، حتى اذا ما أخذوا حظاً من رياضة الابدان انصرفوا الى حمامات باردة تزيل عنهم الماء وتكسبهم النشاط ، فاذا تم كل هذا انخذ كل طفل معزلا له في الحديقة الكبيرة ، وقد عكف على نفسه يفكر فيها وفي حوله في صمت عميق لا يخطه حديث ولا تشوبه حركة ، فاذا ما لبث على هذه الحال نحو الربع من الساعة متأملا مفكراً جاهداً مطالب النفس ، انطلق الى صحن عدت فيه موائد الانظار ، حتى اذا ما انتهى الاطفال من هذا ، فعيرا جماعة الى الصلاة يؤدونها في خشوع وتفكير وايمان ثم يبدءون دروسهم بتلاوة مقدس كل يوم ، وتبدأ الدراسة في الهزيع الطلق حقات في منتصف الثامنة ، حتى ينتصف النهار ولكل طفل وسادة من القش يفترشها وقرطاس وعصية وقلم يحملها معه كما انتظم في حلقة الدرس . أليست هذه هي دوسة للاطفال وضعت الهند نظامها منذ أجيال بعيدة في نظام مدارس الغابة التي كانوا يسمونها (أشرم) وفي الساعة الثانية عشرة يتفدى الاطفال وينتهي برنامج الدراسة اليومي مراعاة لحرارة الجو في بلاد الهند ثم ينصرفون بعد ذلك الى بعض شئونهم فيلعبون ألعابهم الرياضية ويتفكرون دروسهم أو يعملون في الحديقة فلاحة وتنظيماً وريا ، ثم يخرج بعض التلاميذ جماعة منتظمة الى القرى المجاورة لارشاد أهلها الى الخير وتدريبهم على ما تلقات عليه أنفسهم من تعاليم المدرسة ، وبهذا يعم الاصلاح في أوسع نطاق ، ولا يقتصر

على طلبة المدرسة وعددها . ويبدأ التلاميذ في تقويمهم نزعة الى الاصلاح والارشاد والتعليم حتى اذا ما اقترب النهار من الزوال عادوا الى مقاصدهم يتحدثون فيها ، فاذا ما أخذوا حظهم من النشاط رجع كل الى فترة الهدوء في منزله يفكر ويتأمل ويستعرض ما كان منه طول اليوم ، محاسباً نفسه مذكراً دائماً بتفوق الروح فيه . ثم يجتمع التلاميذ للاستماد والترتيل لفتح مقصة ، ثم يتداولون الغناء فاذا ما تغيرت منه عكف الاطفال على قراءة القصص التاريخية وتمثيل مسرحيات صغيرة او ترتيل الاغاني الهندية الجميلة — وأما الكبار من الاطفال الذين يهيئون الامتحان بالجامعة فيباح لهم الدرس والمذاكرة بعضاً من الليل ، ثم يأوي الجميع الى مضاجعهم في منتصف العاشرة وتطوف جماعة الانشاد بالمدينة أناشيد الهند ، وهكذا ينتهي اليوم كما بدأ بالاغاني والانشاد »

* * *

والناحية الاجتماعية التي ينشأ عليها الطفل في مدرسة تاجور منتزعة من عقيدة تاجور العالمية ، فهو يبتعد بالاطفال عن روح الانرة والانانية ولا يلقي في نفوسهم بأنهم هنود أو من طائفة خاصة لها وطن ولون وعقيدة وجنس خاص ، وانما يأخذ بأيديهم الى باب الانسانية ، فيطبع هؤلاء الاطفال بطابع عالمي بعيد عن روح القومية الجامح ، ويبعث في قلوبهم حب الوطن على انه فضيلة ، والقومية لا تجر النفس الى شر أو عنف أو عصبية . ولعل آراء تاجور التي بثها في هذه الناحية في كتابه «البيت والعالم» هي المبادىء الاجتماعية التي ينشىء عليها اطفال مدرسته . فهو في هذا الكتاب لا ينظر مطمئناً الى الوطنية النفسية نظرة تقدير ، بل يراها عملاً عصبياً صادراً عن الانفعال والأثرة التي تدفع بالبشر الى الحروب دائماً . فأطفال تاجور يعرفون وطنهم ويحبونه كما يحبون أمهاتهم وآباءهم ، ولكنهم يعدونه وحدة منسجمة في العالم الذي يجب ان يُحَبّب ويؤثر في القلب والتفكير في سبيل الانسانية جميعها . ومن قواعد فلسفة تاجور ألاّ يؤثر العنف في أي عمل ، وقد تدعو الوطنية الى التطرف والعنف ، بل انها قد تدعو الى إزهاق الأرواح والكفاح الدموي . وتاجور يأبى هذا ويرفضه أشد الرفض ، لانه يشد المثل الأعلى في الوطنية الذي تفسره البشرية تفسيراً صحيحاً يرضي الضمير الانساني

فاختلاف الاجناس طبق اختلاف الالوان واللغات ، ليس عملاً من أعمال الأنانية ، وانما هو عمل من اعمال التفكير الشاذ المنحرف عن الحق وطبيعة الحياة — وتاجور لا ينكر اختلاف المواهب ، ولا اختلاف البيئات ، ولكنه ينكر ان يكون هذا الاختلاف مثاراً لمشكلات اخرى ، بل يجب أن يكون دافعاً وموجباً للتعارف والتزاوج والائتلاف ، ولهذا ينكر تاجور أن تتناحر الوطنيات المختلفة ، لانها تجر الانسانية الى نوع من الوحشية البربرية في صورة من الحرب والغزو واهدار الانسانية[1]

واطفال مدرسة تاجور هم في الحق مخلوقات كاملو الرجولة فالرجولة منطوية فيهم حتى يأتي

(١) البيت والعالم : تاجور

أولها، فتظهر ناضجة غير مبتسرة، وهم كما يدركون شخصيتهم ويغلبونها على أمورهم ونظام معاشهم يختارون من بينهم كل أسبوع رئيساً عليهم، كأنهم يتدربون على النظام الانتخابي الديمقراطي في حياتهم؛ فهم لا يدعون رئيساً يستبد بالغلبة وطول الأجل عليهم فيسري حب السيادة والسيطرة الى بعضهم، ويشعر بعضهم بغلة الرآسة والقهر الروحي؛ إنهم يرفضون هذا ولكنهم يحترمون النظام تدبيراً للحياة وتقديراً لسلوكها وطبيعتها، وشخصيتهم في هذا هي مصدر تقديرهم واستقلالهم في الحياة — وهم في المدرسة كجماعات النحل — لكل جماعة رئيس ينتخب ولكن الى أجل، ليسودها روح التعاون التام، ولهم محكمة من أنفسهم تفصل في شئونهم اليومية وما ينتج من بعضهم من مخالفة لنظمهم وتعاليمهم وسلوكهم، ولا يشترك فيها أساتذة المدرسة مطلقاً الا اذا كان الأمر جد جليل، وهذا في النادر القليل

ومن أهم المبادىء العامة ألا يتسلط المعلم على ارادة تلاميذه وألا يشعرهم بتفوقه عليهم بل يجب أن يتعاون المدرس مع تلميذه على الفهم والدرس، وكثيراً ما يخضع المدرس لارادة تلاميذه متى كان الحق في سبيلهم؛ وليس في المدرسة عقوبة بدنية لأن التعذيب البشري محرّم وإجرام، فالعقوبة ممنوعة ومقطوعة. والعقوبة القاسية عندهم أن يقاطع المذنب فلا يلتفت اليه تلميذ أو معلم، بل يهمل ويترك. وفي هذا بلاء له ودعوة الى التهذيب والاصلاح — ومتى اعترف التلميذ المذنب بخطئه كان هذا استغفاراً كافياً ليعيد اليه المجتمع المدرسي حقوقه واعتباره

فمدرسة تاجور من هذه الناحية عالم صغير ولكنه غير محدود، بل هو العالم الكبير المنطوي على نفسه الى حين، وهي تستمد مقوماتها من روح صاحبها، فهو زعيمها الروحي وهو أب لأطفالها سعيد بهم، بل هو كما يقول عن نفسه «انني مع أطفال أسعد مني في أي مكان آخر» وفي شخصيته الجاذبية القوية التي تجمع اليها جميع التلاميذ؛ فهم يشعرون بأنهم متقابلون في شخصيته الجامعة، يستمدون منها الباعث الحي لايقاظ نفوسهم وقلوبهم الى المعاني السامية التي تدعو اليها شخصية تاجور، وهو يعمل دائماً على اذكاء شخصية أطفاله وتنميتها وبث الروح فيها لتنهض متماسكة بقوتها وحيويتها الغريزية، لأن تاجور يدعو دائماً الى أن تكون شخصيتنا أول شيء نعرفه في أنفسنا، فهي مصدر تفكيرنا، ومجال الدرس والتعليم

«في أنفسنا يجب ان نفكر ونتدبر، وفي أنفسنا يجب ان نرى صور الحياة والانفعالات والرغبات والغرائز والميول واتجاهات الخير والشر، وفي شخصيتنا ينطوي العالم الروحي والعالم الحي معاً، ويجب ان تصدر معارفنا ومشاعرنا وأدبنا وفننا مطابقة لشخصيتنا التي يجب أن تكون مدركة قائمة ومتصلة بالعالم وما فيه من أسرار، وكلما اتسعت دائرة معارفنا الشخصية بالأشياء الخارجة عنا كنا أكثر حرية» (١)

(١) عن سعد هانا

وفي الحق ان هذا المذهب الذي يدعو اليه تاجور في مدرسته ، مذهب تحريك الشخصية الفردية وجعلها حرة للبحث والتنقيب والنظر ، في الحق ان هذا المذهب هو مذهب هندي قديم دعت اليه أديان الهند ونصَّ عليه في تعاليم « يوبانيشاد » التي تبحث عن سر الفرد في روحه ، وتدعو الانسان ان يخلص نفسه من مظاهر الحياة وبهرجها الكاذب ، ليحل فيه المخلوق الطاهر النقي أو الجوهر الأوحد العام الذي يطلقون عليه اسم « برهمان »

هذه هي مدرسة تاجور التي نشأ فيها أطفاله الى عام ١٩٢١ وكان يقف فيها بينهم ويشترك معهم في اخراج مسرحياته يعلمهم الاداء والنطق والاخراج ، ولا يفتر بتفكيره الفلسفي الكبير على دائرة العقول الوديعة الساذجة ، بل كان يرى في هذه الدائرة معيناً له على فهم حقائق الاشياء ، فكان تاجور يعرِّف نفسه الاطفال الآداب والقصص والترتيل والغناء ، ويثير في نفوسهم دائماً الشغف بالفنون من رسم وتصوير وشعر وموسيقى — وهو رجل يقول عن نفسه إنه ليس بعالم من علماء التربية ، ولكن مهمتهُ أن يحبِّب الطبيعة الى الطفل ويستر في العناية بالدراسة بين الطفل وبين البيئة التي يعيش فيها

وعندما عاد تاجور سنة ١٩٢١ الى بلاده من رحلة طاف بها ممالك أوربا وأميركا ، أدرك مما شاهد ، بعد الحرب العالمية ، ان المدنية الاوربية تسير الى انهيار لا واقي منهُ ، بغير الدعوة الى مبادىء السلام الصحيحة التي لا تنشد بعقد معاهدات او معاهدات ، وانما تنشد باشاعة الوحدة الروحية بين الجماعات والامم ، واثارة الانسانية والخير في جميع ما يصدر عن الانسان من تفكير وشعور وعمل ، وأيقن أن أعصاب الشباب في الغرب مسخرة لأهواء ومطامع فتاكة وتعاليم خطرة من شيوعية الى فاشستية الى فوضى في التفكير والعقائد ، الى أنانية وأثرة تعمل في الخفاء كالبركان الصامت يدوي حرقاً تحت أطباق الارض يتلمس المنفذ والمخرج للثورة والهياج . فكَّر تاجور طويلاً فهالهُ الأمر وخشي على المدنية كل خراب ان تذهب ضحية حرب فتاكة مقبلة فاستقر به الرأي على ان يحوِّل مدرسته « شانتي نكتان » الى معهد عالمي سماه « فسفا بهاتي » يقوم على اساس الفكرة الانسانية التي يتسر بها بين الهنود على ان يكون معهداً عالياً للدراسات الروحية والانسانية العليا ، يحتفظ بالمقومات الاساسية لمدرسته ، وليكون دعامة قوية لتطهير المدنية من دائها الكامن في قلب الغرب ، وقد أعلن تاجور يوم افتتاحه

« يجب ان تسمو الاثرة عن ذيول التعصب للجنس واللون »

وكان تاجور يرمي بهذا الى غرض سامٍ نبيل عبَّر عنهُ عند ما قال

« اني أطمح الى إنشاء انسان كامل خير ، وان يكون منهم هذا الجيل تمثل مصاعب البلد في سبيل الخير وان يتعاون في دفع الاثرة عن نفسه حتى يتمتع جانب الخير في الانسان وتسمو منه عوامل الشر »

سمع العالم هذه الاغنية الخلوة أغنية المحبة والسلام : تطلع من قلب الشرق الحكيم الى عالم ما زالت الدماء تفور في نواحيه بعد حرب طويلة طاحنة تساوى فيها الغالب بالمغلوب ، وأهدرت فيها كرامة الانسانية ورجولتها ، استمع العالم الى أغنية تاجور من قلب الشرق الحكيم ، فالتفت الى معهد تاجور ، وأقبل عليه الفلاسفة والعلماء والحكماء من كل قطر يجلسون اليه جلسة التلاميذ ، ويسلك معهم تاجور مسلك الزملاء ، متخذاً مدرسة الاغريق مثلاً له ، فينتقل وتلاميذه الى شجرة وسط الطبيعة الرحبة ، حتى اذا ما استقر بهم المقام ، كان الحوار وكان الدرس الهادىء ، وكان الحق الواضح مستلهماً جلال القدرة الخالقة في ايجاد الصلة الروحية بين الانسان وما حوله من كائنات وحقائق ، داعياً الى ازالة الحواجز بينه وبين نفسه ، وهو في محاضراته شاعر ومغنٍ وقاص وناقد وفيلسوف واديب وفنان ، وبرنامجه الروحي يستمد مقوماته من تعاليم « اليوبانيشاد » ومن فلسفة « بوذا » واتجاهات التفكير الحر المنسجم مع الطبيعة البشرية . وهو يبحث في محاضراته عن سر الفرد في روحه ، ويدعو الى تجريد الانسان من مظاهره الباطلة ليسطع فيه النقاء المتمكن في ذات نفسه ، وينبثق فيه هذا الجوهر الأوحد الذي يسمونه (برهمان) وهذا الجوهر هو الحقيقة التي يستحيل وجودها في العالم الخارجي للانسان ذي الظواهر المطردة الزوال ، انما يمكن الوصول الى هذا الجوهر بالروح التي يسمونها (اتمان). وليست هذه الحقيقة الباطنة كالحقيقة التي ينادي بها فلاسفة الغرب ، أي استكمال الشخصية من عواملها ومظاهرها الخارجية بل هي على العكس

« فناء الشخصية المفكرة في القوة الخالقة التي تهب التفكير ، فهي انناء الشخصية الفردية في يشوع لا شخصي ، أو تركز الشخصية الى الجانب اللاتناهي من النفس ، هذا الجانب الذي يمثل الايمان بالله والاتصال بالقدرة الخالقة المدبرة الموحدة للكائنات جميعاً ، والذي لا يمكن للعقل أن يكتنهه او ان يستولي على هذه القوة الجامعة بادراكه » (١)

لان العقل وان طلب المثل الأعلى فهو بنزعته الانفصالية ضعيف عاجز عن الاستيلاء على جميع الحقائق فكيف له ان يميل الى التحليل والانطلاق ، وان يندمج في صورة هذه القوة الخالقة التي يشعر معها بأنه لا شيء

والانسان في رأي تاجور :

« كائن موزع بين الروح والطبيعة ، بين الروح والعقل ، فيه نزعات تسمو به الى عالم اللانهائية وفيه نزعات تنحط به الى الانانية والاثرة ، فهو بين تيارين متجاذبين ، تيار يجذبه الى الروحية غير المحدودة ، وتيار يدفعه الى المادية الضيقة التي تظلم عليه الحياة ، وتوصد دونه أبواب القلب والسمو والتطور بالكمال المطلق . وان فوز الانسان في هذه المركة ليسعوه أولا ألا يكون متشائماً ولا يحكون مرتبطاً بأغلال الشهوات والشبهات في الحياة ، بل عليه أن يدرك الحقائق سليمة جريئة بعيدة عن ألوان اليأس والشك ، وان يؤثر

(١) عن تعاليم البوانيشاد

الطبيعة ويرفع الحواجز بينه وبين نفسه ، ثم بينه وبين الطبيعة ، هذا هو السبيل الذي يرفع عن كاهل العقل والنفس أثقال المادية المحدودة ، فليست انسانية وحدها ، وليست الحياة الا الانسان الحي الخالد الذي يطلب جانب الخير في نفسه دائماً بما الى الانسجام في حقيقة الكائن الاعظم من طريق ادراك كنه الحياة وما بعدها ومن طريق السيطرة بأسرارها والتعرف اليها والاستمتاع الروحي بجمالها وجلالها — وليست الصوفية — بمعالمها التي تفهمها الكثرة الخاطئة — هي الطريق الى هذا لانها وجه عابس تظن به الحياة . وهذا البؤس ينشأ عنه تشاؤم يطفىء بهج الحياة ويستدل على أسرارها ستاراً قاتماً لا يرينا من الحياة غير لون داكن ، ولا يجعل منا العقل الذي يدرك ما في الطبيعة الوهوبة من جمال — فهذه الصوفية التي تحتقر الحياة وتزدري الانسان ، انما هي عمل هادم لشخصية الوجود تحرمن بين الانسان وبين الاتصال بالحق المطلق وتقطع العلاقة بين التفكير البشري الذي يتطلب دائماً المثل الاعلى وادراك ما وراء عنه وبين الاستيلاء على الحقائق الثابتة في الوجود من طريق الفهم والادراك والتمييز ، فهي خذلان للقوة التي أودعها الله من سره في الانسان وهي من ناحية أخرى تحمد مشاعل الروح ومداركها لأن الروح لا تكون متحدة إلا اذا يسر لها الطريق الى ادراك الحقائق من سبيل لهما والايناس اليها والتمازج بها ، ولا يمكن ان يكون هذا إلا اذا ابتهجت الروح بأسرار الحياة ومباهجها ، وأدركت ما في الطبيعة من عذوبة وفن وسر ، واستمرأت ما أحل لها ، وابتهجت به ، وعرفته معرفة تامة — وهذه المعرفة تدعو الانسان الى ان يتعاون مع الطبيعة ليفهم أسرارها ويتهيج بالوصول الى حقائقها ، فهو لا ينظر الى الطبيعة نظرة السيطرة والغلبة ولكن ينظر اليها نظرة التفاهم والتعاون والشعور بأنه جزء لا ينفصل عنها ، وهذا يجعل الانسان اوسع ادراكاً وبسطاً للطبيعة وهذه الحقيقة هي التي شغلت تفكير فلاسفة الهند منذ القدم وهي تبدو واضحة في ازالة الحواجز بين الانسان والطبيعة واقامة حضارة تنهض على التعاون بين العقل البشري وبين الكائنات — وأما حضارة الغرب فتنهض على أساس مناقض على أساس الخصومة بين الانسان والطبيعة ، فهو يشعر دائماً بأنه يجب ان يتسلط عليها وان يقهرها وان يستغل منها مصادرها ويدل اسرارها ، ولهذا كان الانسان الغربي لا يدرك من الطبيعة إلا ما يحيله منها من مادة وهو بعد هذا شاعر بعزلة عن الوجود ، وفردية قاسية تدعوه الى أنانية وانزعة ميتة ، لانك ان تفيض من نفسه تخرج من دائرة كانت بينه وبين الطبيعة فاذا بها أنانية شاملة لنطاق الفرد والجماعة ، ثم لنطاق الجماعات بعضها مع بعض وفي هذا المدرك تدري مباهج الحياة وتندثر القوى الروحية من الحضارة لتبقى حضارة جافة يابسة يصيبها اللهب القريب فيحرقها (١)

وليس معهد تاجور مقتصراً على برنامج فلسفي يدرس ، ولكنهُ معهد وطني متى كانت الوطنية تسع المعنى الانساني الشامل ، فلقد فتح ابوابهُ لجميع المنبوذين عندما دعا الهامها غاندي الهنود الى نبذ الفوارق بين طوائفهم ورفع المنبوذين الى مصاف الانسانية . ولقد أكبر تاجور هذه الدعوة وأيّد غاندي فيها وانضم اليه ، ولم يكن من مؤيديهِ السياسيين الى سنة ١٩٣٢ — لان تاجور الذي يدعو الى الوحدة البشرية ، يهزلهُ أن يرى في الهند وطنه الحبيب ، فريقاً يسعى الانجاس بنبذهِ أهل الهند جميعاً فلا ودّ ولا تعارف ولا اختلاط ولا كلام ، وهم قوم نبذتهم الآلهة فصغر شأنهم وانحط قدرهم الاجتماعي فبتر عن الهند نشاطاً لو عاد اليها لسعدت حركة ونماء وثقافة ، ولزال عنها هذا العار الذي لصق بها عند ما خيل اليها ان أديانها تدعو الى نبذ فريق من أهلها ، ولا تعدّهم آدميين بل مخلوقات دانية الى البهائم . هال تاجور هذا الوهم الاجتماعي فانضم الى غاندي في صومه الذي فرضهُ على نفسه

(١) تلخيص من الفصل الاول من سمعنا

أو تعود الهند وحدة سليمة من هذا المرض الفاشي بين أهلها منذ آلاف السنين يومئذٍ صام تاجور على الرغم من شيخوخته وأمر تلاميذ جامعته بالصوم ، وجمع الوفاً من طبقات « السافة النجسة » في مدرسته وأكل وجبع أتباعه معهم فأصبح من ذلك الوقت من مؤيدي المهاتما غاندي في آرائه الاجتماعية

ولقد تكلم تاجور في مدرسته ، داعياً أهل الهند ان يرفعوا الى طبقة الانسانية اخواناً لا ذنب لهم ان تسفل بهم الطبقات الاجتماعية الى درك يدنيهم من البهائم فقال :

« في اليوم الذي بدأ فيه المهاتما صومه ، رأيت الظلام قد انتشر فعم بلاد الهند جميعاً ، حتى ان الشمس قد كسفت ، فالناس في حيرة وقلق شديد ، ان المهاتما الذي تاجج بتضحياته الماضية روحاً جديداً في الهند يقدم الآن حياته في سبيل وطنه العزيز

مملكة الروح

« إن لكل قطر حدوداً معنوية باطنية كما له حدود مادية ظاهرة . وفي الحدود المعنوية يحكم الروح ويجب ليس للقوة المادية ان تغير او تبطش او تتدخل على أي جزء مثيل من هذه المملكة المعنوية الروحية . والفاتحون من الاجانب الذين يغزون الاقطار يستعمرون البلاد عنوة وقسوة ليس لهم من سبيل وان قهروا حدود البلاد المادية ان حدود هذه المملكة المعنوية ، وسلطانهم لامحالة زائل يوم يزول نفوذهم عن البلاد ، عندئذ تنهار عظمتهم الموهومة لانها عظمة قائمة على الشر والباطل . وأما الحكومة التي تتفرع بماء وتنمو الصدق والخير وتنال النصر الروحي فتفتح البلاد فتحاً روحياً . فهي حكومة خالدة الى الابد . هذه هي حكومة للمهاتما غاندي . لقد ضحى المهاتما بجميع ما لديه من عزيز في سبيل غايته الروحية وها هو ذا يضحي بروحه التي هي أعز عليه في سبيل ما يبتغي . وانه لامر جليل هذا الذي يقدم عليه غاندي اليوم . وان قلوبنا لتجزع وتفزع لهم وليشتد بنا الكرب كما فكرنا في الامس ووجدنا المهاتما مصراً على تضحية نفسه

« وليس في جزعنا أي عجب . انه اعتقاد أن لطائف على اختلاف الروحية الباطنية أسماء ما نرى من الآثار المادية التي تلمسها . ثم قابلها مقابلة واقية ثم نودعها وداعاً لا لقاء بعده . لقد افترع زعماء الرأي فيه ان يصوم المتعبد اليوم . وهذا الصوم وان كان على خير وبركة ، إلا أني أخشى ان يحسب الناس صومهم كصوم المهاتما غاندي . إذن خلقت علينا الصدأ والاتكلية اثماً عظيماً . لان تكون غير مقدرين لحق قوته ولا منصفين لصدق جلاله

رسالة الى العالم

إن التضحية التي قدمها المهاتما غاندي ليست تقليداً دينياً . بل هي رسالة بليغة الى الهند والى العالم البشري كافة . فمن كنت تريد ان تقبل هذه الرسالة علينا ان نقبلها بمعانيها الصحيحة ومقاصدها السامية . وان نفهمها ونتدرسها درساً جدياً . ألا ان التضحية منحة لايمكن ان يتسبب الانسان قبولاً حسناً ، إلا اذا جاد بسخاء قبل ان تتقبل هذه الرسالة

الفوارق الانسانية

لقد نشأ الخلاف وقام النزاع في البشر منذ فجر تاريخه الاول . ولقد سبقت بعض الجماعات وتقدمت غيرها مصادفة . ثم أخذت تستغل ضعف الضعفاء ثم تتكبر عتواً متيناً . ثم تتخذ لها القياد والملوك . إن هذه العادة قديمة في البشر ولكنك على الرغم من قدمها تجزم بأنها ليست من الانسانية في شيء . وليس لامة متحضرة ان

تبني عظمتها على اذلال الذين جردتهم من انسانيتهم ظلماً وعدواناً وحبست أرواحهم في سجون مظلمة لا يسكنها النور

إن الذين تظلمهم على أمرهم سيظهرون . انهم يحملون من بينهم سفراً بيننا وبين الرقي والتقدم . فالحق الذي تحمل به ظهورهم انما هو رافع على ظهر البلاد كلها فنادل معهم ونسقط بسقوطهم . انه لا يهين الانسان بل تهين البشرية كلها

السجن

ولي الهند ألوف محتشدة من البشر مقيدون في السجون بالاغلال والحديد دون ان يحاكموا أمام المحاكم والقضاء . لا يعاملون المعاملة الانسانية إذ أرادت الحكومة ان تنال منهم . ولكنهم سجلوا عليها وزراً كبيراً . بل أنهم قضوا على هيبتها وسمتها قضاء لا مرد له . إن تعذيب المسجونين سواء أسياسيين كانوا أم غير سياسيين يثبت ان البربرية القديمة لا تزال قائمة في صميم المدنية

ونحن معشر الهنود قد خضعنا قرناً من أبناء بلادنا بالذل والظلم . ووضعنا له اساساً صعباً سهلاً . إن السجون لا تبنى بالآجر والاحجار فتطيل ان تجريد الانسان من اعتباره ، واهدار انسانيته ، هو السجن الحقيقي . وانه يدل على صغار نفوس الذين يقومون دعائمه لا على صغار الذين يعذبون فيه

الجرم الاثيم

ولاريب في ان التعرب والجامعات البشرية يمتاز بعضها عن بعض بخاصات بعض فوارق طبيعية . ولكن الحكم على شعب او جماعة بأنها خلقت ذليلة سافلة ، وانها يجب عليها ان تبقى كذلك الى أبد الدهر . وانها لاجل ذلك يجب ان تجرد من سائر حقوقها الانسانية ، هذا الحكم الجائر انما هو ظلم شنيع لا يضاهيه ظلم لان شناعته لا تزال تزداد وتقسو مع الزمن

نحن نزعم أننا أفضل من شعب الانجاس ، ولكن الحقيقة ان هذا الشعب عندما ينفصل عنا نسقط ويهوي كيانا ونصبح أكثر خلق الله ذلة وصغاراً . ونحن معشر الهنود لم يدب فينا هذا الضعف إلا من هذا التفريق الباطل . بل انه هو الذي سبب جميع مرائنا التاريخية . وكل قطر تتشتر فيه هذه الفوارق يختل نظامه ويضطرب ميزانه ثم يسقط الذين علوا فيه كبراً قبل ان يسقط الذين حكم عليهم بالذل والعار

إن البلاد الغربية قد نشت فيها مثل هذه الفوارق ، فعمدت الشقة بين الغنى والفقير ، وكنت تحت هذه الفوارق براكين مستعرة لا يعلم أحد متى تنفجر لتقضي على المدنية الغربية قضاء تاماً

خطأ الهند القديم

لقد شرح المهاتما غاندي المخاطر العظيمة التي تهدد بلادنا من طريق هذه الفوارق البشرية التي هي لعنة ماحقة على الانسانية . ولكنه لم يطنب في شرحها كما أطنب في مناقع الفساد الوطني . حتى وصلت الحالة الى هذا الحد المشؤوم . ان الخطأ الذي ارتكبناه في تقسيم شعبنا طبقات غير متساوية الحقوق لخطأ قديم راسخ في قرننا . انه قد قوى أعداءنا وأضعف شعبنا

ومن العيان ان زيله من جذوره . وان خلاصنا هذا هو الذي جعل المهاتما غاندي على ان يطلق الحرب الشواء عليه ونحن ان فقدنا غاندي لسوء حظنا في هذه الحرب المقدسة فسؤوليتنا ستكون عظيمة وسيخاطر كل واحد منا ان يخوض غمار هذه الحرب الى النهاية حتى يقتصر فيها او يذهب شهيداً لبدأ سام

ولقد أحسن المهاتما غاندي الينا عندما قدم هذه الحرب المباركة هدية غالية للشعب . فعلينا ان نتلقاها في تواضع وحزم وتصميم . وان نقابلها لا بعين كما هي عادتنا ، فانا سنفقد هذه الفرص الكبيرة التي استثمرت في المهاتما الكبير وسنسقط في هاوية سحيقة نلق فيها الردى ولا بيت لنا منها أبداً ونفقد فيها غاية وجودنا الى آخر الدهر

مدرسة تاجور ليست مدرسة محصورة البرنامج محدودة العمل ، ولكنها مثابة يدعو فيها تاجور الى الحق أيما كان لون هذا الحق ، فهو يدعو فيها الى الوطنية عند ما يجد الوطنية تأتلف

والدعوة الانسانية التي تدعو اليها رسالته ، وهو يبشر فيها بآرائه في السياسة والحكومة عند ما يجد وسائل الحكم تنحرف عن قواعد الحق التي تتضمنها رسالته الكبيرة الى العالم ، وهو يتخذ مدرسته ليست الآراء التي تأخذ بثقافة الشعب الهندي الى الطريق المستقيم الذي تهدي اليه عقائده الصحيحة ، فليست مدرسته معهداً للعلوم ، ولا مجمعاً للابحاث التاريخية ، ولا معبداً للصلاة ، ولا مشجعاً للفنون والجمال ولكنها جامعة تحوي كل هذا ، ومنبراً عاماً يشمل « جميع مطامح النفس »

والمعنى الشامل لمدرسة تاجور هو هذه الطوائف من المفكرين والباحثين في جميع أقطار الأرض دون تمييز للون أو جنس أو دين ، وتبشر هذه المدرسة بدعوته عن ايمان حق ويقين ناسع ، لان تاجور لم يكن هنديًا ولاقوميًا في دعوته ، ولكنه اتخذ من عقائد الهند وفلسفة الشرق مبادىء صحيحة للدعوة الى إنشاء انسان كامل ، ومدنية بشرية لا تعرف اللون والجنس والوطن

ولعلنا نستطيع ان نلخص برنامج مدرسة تاجور في المواد التي جمعها في كتاب سعدها نا Sad Hana ، والتي قال عنها انهُ اعتاد أن يتحدث مع طلاب معهده فيها ، فهو دائماً يحدثهم عن علاقة الفرد بالعالم ، وهو يحدثهم عن وجدان الروح ، ويحدثهم عن مشكلة الشر في الوجود ، ويحدثهم عن معضلات النفس ، والحب ، والخلق كما يحدثهم عن تحقيق الجمال وادراك اسراره الروحية ، ثم يفيض عليهم دائماً حديثه في الجانب اللانهائي من حياة الانسان

« طما تتمة »

لماذا خبا المصباح ؟
لقد كنت أسدل عليه عباءتي خشية أن تعبث به الرياح . لهذا خبا المصباح
لماذا ذبلت الزهرة ؟
لقد كنت أضمها الى صدري في لهفة الحب ، لهذا ذبلت الزهرة

***

لماذا جفّ الغدير ؟
لقد كنت أعترض مجراه بالسدود ليكون لي وحدي ، لهذا جفّ الغدير
لماذا انقدّ وتر القيثار ؟
لقد كنت أحاول ان أوقع عليه لحناً لايحتمله ، لهذا انقدّ وتر القيثار

« من البستاني : لتاجور »